حوار مع صديقي المعماري في فلسفة التراث والحداثة  
في التعليم المعماري المعاصر والكمبيوتر  
  
د. وليد أحمد السيد  
دكتوراة في فلسفة العمارة من (UCL) - جامعة لندن  
  
قال صاحبي:" أنت تنكر إذن فوائد الكمبيوتر في الواقع المعماري في الجامعات والمكاتب؟  
  
قلت:" أنا لا أنكر إيجابيات الكمبيوتر يا صديقي وليس هذا ما قصدته! لا ننكر أن لاستعمال الكمبيوتر كما قلت فوائد كبيرة في مراحل تظهير المخططات وتعديلها وطباعتها بمقاييس مكبرة وصغيرة وهي من الأمور التي لم تكن متاحة قبلا. لكنني أعني الإعتماد الكلي على الكمبيوتر في "التصميم" بما يلغي عملية الإبتكار والإبداع البشري! فالكمبيوتر هو أداة بيد من يستعملها. أما الحاصل اليوم فهو العكس حيث أصبح المعماري أسيرا لبرامج الكمبيوتر وغاب عقله الإبداعي وتم التسليم بصورة كبيرة للكمبيوتر بمحددات برامجه ووسائل إظهار الرسومات به على حساب الفكرة النوعية. وبدأنا تبعا لذلك نرى جيلا جديدا من المعماريين لا يملك أصلا المواهب الإبداعية الأساسية التي كانت المؤهل لدخول هندسة العمارة. وبدلا من ذلك أصبحت العلامات والنبوغ العلمي – على أهميتها – هي التذكرة للطالب أو الطالبة ما قبل مرحلة الجامعة للدخول لقسم هندسة العمارة, حيث أصبح الأمر يتطلب القدرة على إتقان مهارات وتعلم برامج الكمبيوتر. وكل ذلك أصبح بالنتيجة يصب في بوتقة وجيوب "حيتان" عولمة الإقتصاد, لينتعش سوق تكنولوجيا الكمبيوتر وبرامجه للمعماريين من طلبة ومهنيين. فكل ذلك بالنهاية هو حلقة متصلة!  
  
برأيي أن المعماريين قد تأثروا فعلا الآن, وذلك من خلال اتجاهات جديدة بين المعماريين في تخصصات علمية مرتبطة بالكمبيوتر واعتمادهم على قدرات الكمبيوتر في التعبير عن أفكارهم التصميمية بطرق أسرع من الماضي. بالإضافة إلى أن معطيات الكمبيوتر المتنوعة غطت على عيوب الكثير من المعماريين ذوي القدرات الفنية الضعيفة في التصميم أو الإظهار ممن لجأ للكمبيوتر وتخصص في العديد من مجالاته (3-D) وغيره. ولذلك فبرأيي ومن أجل المحافظة على مستوى العمارة والمعماريين والحيلولة دون تدني قدراتهم الفنية وحتى لا تتحول العمارة إلى فن إعلاني أو سينمائي, اقتراحي هو أن يدرس الطلبة هذه المتطلبات المتعلقة بالكمبيوتر كمساق "متأخر" في مرحلة متأخرة من دراستهم بعد تنمية قدراتهم المعمارية الكلاسيكية كالرسم الحر والظل والمنظور لما لذلك من أثر في تقوية حسهم الفني الإبداعي. وكم يكون كارثيا اعتماد الطلبة على الكمبيوتر منذ مراحل الدراسة الاولى! هل يتخيل أحدكم, وللمقارنة, إلغاء حصص الرياضيات والحساب والجبر من المدارس في المراحل الاساسية لمجرد اختراع الآلة الحاسبة؟ كيف يكون عليه حال التلاميذ لو أصبح اعتمادهم كليا على الآلة الحاسبة في اتمام علميات الجمع والطرح والقسمة وغيرها؟ فائدة الرياضيات والحساب عظيمة في تنمية ذكاء التلميذ, بل يذهب العلماء إلى أنها مقياس لذكاء الفرد. وكذلك الحال في العمارة فلا غنى عن المهارات الكلاسيكية في تنمية وقياس القدرات الفنية للمعماري وإلا لأصبح كأي فرد يجلس خلف الكمبيوتر ببعض العلوم الرتيبة في كبس هذا الزر أو ذلك, ولا حاجة لإضاعة خمس سنوات في تعلم العمارة وتاريخها ونظرياتها والتدرب على التصميم المعماري!!  
سأل صديقي:" تقصد أن دخول كلية العمارة سابقا كان يشترط توفر ميول فنية وأنه ليس مطلوبا اليوم؟  
  
قلت لصديقي:" لست متأكدا تماما ما هو عليه الحال اليوم, إذ يغلب على ظني أن الدرجات والتحصيل العلمي بمرحلة ما قبل الجامعة ما يزال هو المعيار الأساسي. لكنني أعرف سابقا – وكما كان عليه الحال قبل عشرين سنة حين التحقنا بكلية العمارة – أن الميول الفنية مطلوبة ومحبذة وكان يتم الإشارة إليها في اجتماع ما قبل التسجيل مع عميد الكلية اجتماع تباحث وتوجيه – حيث يشير العميد لمتطلبات دراسة العمارة وأن الميول الفنية تجعلها أقرب للطالب وأنفع حيث تتطلب خيالا فنيا وميولا فنية من أي نوع وبخاصة الرسم. بالنسبة لي شخصيا, وكما هي حال معماريي الأمس, كان لا بد من ميول فنية لدخول قسم العمارية. فحبي لفن الخط العربي هو ما دفعني لدراسة العمارة بعد مرحلة المدرسة الثانوية. وقد تأثرت كثيرا بالمدرسة البغدادية في الخط العربي وبالذات هاشم محمد البغدادي وكان لوالدي تأثير كبير علي في حبي للخط العربي ولقواعد اللغة العربية واللتين كان والدي من المجيدين بهما. وكنت أراقبه ومنذ نعومة أظفاري وهو يعد البطاقات التي يكتب عليها أحرف الهجاء لتلاميذه وكذلك يساعد زملاءه المدرسين في إعداد بطاقاتهم لتلاميذهم بخطه الجميل. هذه المشاهدات منذ الصغر نمت معي أثناء مرحلة الصبا حيث كانت اللافتات الإعلانية المتميزة والمكتوبة بخط جميل تلفت انتباهي وأجدني أخط بإصبعي مقلدا. وكان الأساتذه في نهاية العام يستعينون ببعض التلامذة المجتهدين وذوي الخط الواضح الجميل في تعبئة جداول الطلاب والعلامات وكنت واحدا منهم. وهذا التطوع للمساعدة كبر معي في مرحلة الجامعة حيث كنت أساعد زملائي وزميلاتي في الكتابة على مشاريعهم المعمارية, وانتقل معي أثناء عملي مع راسم حيث كنت أخط الكتابات على لوحات المسابقات والمشاريع المختلفة. في مرحلة الدراسة الثانوية وبالإضافة إلى حبي للمطالعة, كنت أجلس لساعات طويلة أتأمل بشغف بدائع الخط العربي في كراسة هاشم محمد البغدادي (قواعد الخط العربي) إلى أن اشتريت مجموعة أقلام خاصة وبدأت أجلس لساعات طويلة أتعلم قواعد الخط العربي ونماذجه المختلفة من الكراسة وغيرها من كتب الخط العربي المختلفة.  
  
قاطعني صاحبي قائلا:" إذن أنت لا ترى اليوم فرقا بين المعماري العربي والمعماري الغربي في مسألة الكفاءة طالما أن الكمبيوتر هو المسيطر, بمعنى أن العمارة في عصر الكمبيوتر – وبالذات العمارة العربية – تفقد هويتها نظرا لغياب الإبداع الفني والإبتكار إذن؟   
  
قلت:" إن كان ما تفترضه في سؤالك صحيحا فالإجابة هي الإيجاب نظريا, لكن لا يمكن مع ذلك تعميمها قبل دراسة الواقع!"  
قال صاحبي:" هذا يقودنا إذن لسؤال نقد العمارة العربية وقراءتها وتقييمها على أيدي متخصصين أكاديميين ومهنيين. ويلاحظ فقر الواقع المعماري العربي من هؤلاء. فهل تؤمن إذن بمقولة أن كل ناقد معماري جيد ليس بالضرورة أن يكون معماريا مصمما جيدا؟  
أجبت:" باعتقادي أن جزءا كبيرا من أشكالية العمارة العربية المعاصرة يكمن في الهوة بين النظرية والتطبيق. تجد أحد النظريين يستعرض أفكاره المعمارية ويوجه الطلاب بالجامعات ومعاهد العمارة وليس عنده القدرة عن رسم كروكي واحد. كيف بربك يقوم أحدهم بتحكيم مسابقة معمارية وهو لا يجيد التصميم أو الرسم المعماري! وإذا – لا سمح الله- صمم هذا المعماري مبنى فإن الناتج يكون "فضيحة معمارية" للقاصي والداني.   
  
وكمثال على ما أقول, لنستعرض مثالا حيا من الواقع. فرق كرة القدم العالمية تختار للإشراف على تدريب وتوجيه لاعبيها في الغالب لاعب سابق ذو سجل لامع وخبرة عملية بحيث يكون لكلماته مدلول لدى اللاعبين. ببساطة بيليه يدرب فريق البرازيل, بكنباور يدرب منتخب ألمانيا, بلاتيني في إتحاد كرة القدم الدولي حيث يضع القوانين وهو يعرف ما يقول. لذلك هم عالم متطور ونحن عالم خامس. كيف يجرؤ أحدهم أن يوجه طلاب العمارة وينتقد أعمالهم وهو لا يعرف من التصميم إلا اسمه؟ كيف يشرف أحدهم على رسائل ماجستير في العالم العربي وهو لا يجيد الكتابة الأكاديمية ولا يمارس البحث العلمي؟ العمارة والنظرية المعمارية في العالم العربي تحتاج لمن احترق وأفنى عمره في التصميم والكتابة والبحث. تجد معماريين منظرين يحكّمون مشاريع مهمة وقد أتخذوا من العمارة مهنة برجوازية. أقول ذلك بحرقة إذ قد عانينا أثناء سنوات الدراسة من بعض هؤلاء النظريين لدرجة أن بعضنا كان يلجأ للمعماريين الممارسين لتقييم مشاريعنا وتوجيهنا. كل ما تتلقاه من غالبية المدرسين النظريين هو أفكار سطحية "عقيمة" غير قابلة للتطبيق. باختصار شديد: فاقد الشئ لا يعطيه.   
  
ولكي لا يساء الفهم فيما أقول هنا, أنا أعني بالتحديد تدريس مادة التصميم المعماري بالجامعات وكذلك تحكيم المشاريع المعمارية المهمة.في بعض الجامعات كان يتم دعوة معماريين متميزين من المجتمع المحلي ممن يمارسون المهنة للإشراف على أعمال الطلبة, وهذه خطوة جيدة, إقتراحي زيادة تفعيلها ما أمكن بما يسمح به وقت المعماري الممارس مع تحديد تدريس مادة التصميم المعماري لمن مارس التصميم فقط وبحد أدنى من الخبرة والكفاءة. هناك مدرسين لم يصمم بعضهم أي مبنى وليست له أية خبرة عملية لذا من الاجحاف للطلبة أن يقوم هؤلاء بتدريس مادة التصميم المعماري أو تحكيم المشاريع المعمارية. هناك مجالات أخرى في العمارة تتعلق بجانبها العلمي قد يبرز بها هؤلاء النظريين أكثر, مثل تدريس الظل والمنظور أو إنشاء المباني أو التشريعات والقوانين البنائية أو الإضاءة والصوتيات بالمباني, أما تاريخ العمارة ونظرياتها والتصميم المعماري فتحتاج لمن يجمع الخبرة العملية والموهبة الإبداعية مع الخبرة النظرية والبحث الدؤوب. ورحم الله امرأ عرف حده فوقف عنده وكلنا ذو قدرات وميول علمية أو فنية متنوعة فليجد كل نفسه في مجاله بحسب قدراته هذه.   
  
قال صاحبي:" تعني أن المعماري الذي يجمع بين النظرية والتطبيق في عالمنا العربي هو عملة نادرة إذن!  
قلت:" نعم وللأسف! في الغالب يعاني المعماري الفذ والمبدع من إرهاصات الفكر والمجتمع السائد إن كان يسعى لنشر فكر مبتكر, وغالبا ما يعيش مغمورا كالدر أسفل المحيط فيما تطفو الأعشاب والعوالق الخفيفة على سطح الماء. الأمثلة لا حصر لها ولكن أكثرها حضورا هو حالة حسن فتحي الذي وجد التقييم في أواخر حياته من الغرب أولا وليس من أمته. من الأمثلة العالمية في الفن نستحضر بيكاسو مثلا وغيره ممن عاش مغمورا طيلة حياته فيما لا تقدر أعمالهم بثمن اليوم بعد مماتهم. هؤلاء كان يمكن استغلال نبوغ فكرهم بشكل أكبر في المعاهد الأكاديمية فضلا عن واقع العمارة في بلدانهم ليحدثوا تغييرا أكبر.

وليد أحمد السيد  
لندن في 15 شباط 2010